

الأثر المصري

في نهضتنا الأدبية الحاضرة للأديب بشرى السيد أمين

قبل فتح السودان الأخير الذى تم للحكومتين المصرية والإجليزية في سنة ١٨٩٨ بقليل ، كان الأدب والعلم بمناهما المعروف في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين محصورين في فئة قليلة من الناس . فلما أراد الله ، ولا راداً لإرادته ، وقضى ، ولا ناقض لما قضى ، أن يتم فتح السودان الأخير على المصريين والإنجليز ، كان ذلك غنماً لنا بدل أن يكون غرمًا علينا ، وعاد علينا بأحسن الفوائد وأبركها بدل أن ينزل على رؤوسنا الويل والتبور وعظائم الأمور . وهذا من أعجب ما يبعث في النفوس العجيب ؛ إذ كان المنظور أن تأتى النتائج بعكس ذلك ؛ وهذا طبعاً لا ينفي القول الكريم بأن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها^(١) وجعلوا أغرة أهلها أذلة . فانتشر العلم ، وذاع الأدب ، وشاع في السواد الأعظم من شباب مدنتنا لكثرة ما أنشأ السادة الحاكون من المدارس في مدن السودان الكبيرة وعواصمه ، وما اهتموا به من شأن العلم والتعليم ، وما أنشأوا من صحف وطبعوا من كتب . هذا إلى جلهم مطابع لهذا الغرض وقت به كل الوفاء ، وجعلت مدن السودان وأقاليمه القاصية ، مرتبطة بالدانية منها ، كالسلسلة الواحدة ، لا يفصمها إلا بُعد المسافة . وحتى هذه ذلت تدليلاً حال استقرار الحكم للمصريين والإنجليز بالبلاد ، بإنشاء الخطوط الحديدية العديدة في كثير من أنحاء السودان

وقد تولى التعليم في مدارس السودان أكفاء من خيرة الأساتذة المصريين ، المشهود لهم بالعلم الغزير والأدب الكثير ، فأداروه على خير الوجه وأحسنها ، وتصرفوا في شؤونه تصرفاً هو الناية لمن يريد الإحسان ، فكان عهد المصريين الأول من خير العهود التى مرت بالسودان في جميع أدواره الثقافية

(١) كان الفساد في نواح غير نواحي الثقافة والأدب ، ولذا لم نر

وإني لأذهب إلى القول الآن غير متحفظ أن نهضتنا الأدبية الحاضرة ما هي إلا وليدة تلك الروح العلمية الأدبية السامية التى سرت إلينا من إخواننا المصريين الذين تولوا تعليم ناشئتنا في المدارس التى أنشأوها ، والتى وجهتنا بمد ذلك فأحسن التوجيه ولا يفوتني أن أذكر - وأنا أكتب عن الأثر المصري في الأدب السودانى - ما للمحاضرات والمساجلات والمسامرات التى كان يتولى شؤونها أساطين البلاغة وجهابذة القول من المصريين في مجتمعاتنا وأنديتنا الأدبية بمهارة لا يشر بهم فيها غيرهم ، ولباقة لا يدانيهم فيها سواهم ، من أثر لا يحصى ، ولا زال واضح الصبغة ، مشرق اللون في بعض أدبائنا على الخصوص ، وفي أدبنا على العموم وفهمنا للأدب ومعناه ، ولعلم وجدواه ، لا يمود الفضل فيهما إلا إلى الأساتذة المصريين الذين تولوا تربيتنا وتثقيفنا بصفة مباشرة ، أو غير مباشرة

فنحن مدبنون لهم بالفضل ، ومقرون لهم بالجليل ، فلولاهم ، ومن يدري ، لظلمنا إلى الآن نسبح في ظلامين داسين من جهلنا ولوننا : ظلام جهلنا الذى لا زال يبدده هذا الصبح الواضح لذى عينين ، صبح العلم والمعرفة ؛ ونسال الله أن يأتى على بقاياها في زمن قريب . أما ظلام ألواننا ، فهو آية من آيات الله الشاهدة فينا بقدرته وإعجازه ، لأن الصبح بدل أن يحلوه يزيد إظلاماً !

إذا أضفت إلى ما تقدم شغف شبابنا المثقف بما تخرجه الصحف ، وتطلع به الكتب كل يوم من روائع الأدب المصري على أنواعه في الأغراض ، وألوانه في الأساليب ، أدركت في سر انطباع أدبائنا على هذه الأنواع في الأغراض والألوان في الأساليب ، لأن مثل هذا السحر في البيان العربي الممتاز مما لا يقوى على رده ومقاومته الأدباء الراسخون في الأدب وصنعة البيان ، فكيف بمن هم حديثو عهد بالأدب ومزاولة الكتابة ؟ ولأدركت في سر كذلك أن هذه الثمرة من تلك الشجرة ، ولتنبأت لنهضتنا الأدبية المباركة هذه بماقبة نصير الهلال قرأ ، والفجر صبحاً ، والليل نهاراً . أو لم تسر النهضة الأدبية المصرية في بدايتها على مثل هذه الدرجات من التقدم حتى وصلت إلى ما وصلت إليه الآن من مكان ملحوظ ومجد باهر في عالم الأدب ؟ فكذلك سيكون شأننا نحن في المستقبل القريب إن شاء الله .

أحلام «المنصورة»

لمؤسّسها صالح مروت

آه ممّا بي، وهل تدرين ما بي؟ يومٌ ودّعْتُك ودّعْتُ شباي! أين أحلامي على تلك الروابي؟ ذابت الأحلامُ في قلبي المذابِ

لي حبيبٌ فيك أفدّيه بعُمرى
سُمرّةُ النيل على خذّيه تحبّرى
هو الهامى وأحلامي وشعري
ونعيمي بين عينيه وسُكّرى
كان عند الليلة الظلماء بدرى

وله نهجوى في دُنيا اغترابى يا ترى يذكّرني بعد الغياب؟
آه ممّا بي، وهل تدرين ما بي؟ يومٌ ودّعْتُك ودّعْتُ شباي!

يا عروس النيل والبحر الصغير
حدّثني عن ملكِ الغرب الغرير
يومَ أن جادك في ذلّ الأسير
لَقِيتُ من آل أُبّ أمير
ذكرُهُ لا زال نقّاحَ العير

وهب النصر إلى الأسدِ الغضابِ من بَنِي (المنصورة) الغرّ الأوابى
آه ممّا بي، وهل تدرين ما بي؟ يومٌ ودّعْتُك ودعت شباي!

يا مَنّى الشرق وباريس الجنُوبِ
مَن كَأبنائك في غزو الشعوب
شهداء الجُدد أبطال الحروب
وكفاداتك في غزو القلوب
بالعيون السود واللحظ اللعوب

اللى بَعْدَكَ مِنْ وَهْمِ السَّرابِ والصَّبّ في غير لُقياك تصابى
آه ممّا بي، وهل تدرين ما بي؟ يومٌ ودّعْتُك ودعت شباي!

قد صحبتُ النيل من بحر الصعيدِ
لرشيد وإلى أختِ رشيد
ما وعى لحنى ولا غنى نشيدى
غير غاداتك في الخطو الوئيد
حين يَخطُرُنْ على النيل السعيد

بالوجوه الشّح كالنور المذابِ يتهاكَيْنَ بمُصول الدُّعابِ
آه ممّا بي، وهل تدرين ما بي؟ يومٌ ودّعْتُك ودعت شباي!

ويتجلى لك بوضوح تام شغف شبابنا المتأدّب بالأدب
المصرى المعاصر في تأثر بعضهم بأساليب بعض أئمة البيان هناك
تأثراً ثم عليه أساليبهم ونفضحه ألسنتهم مفتخرة! ففهم من يقلد
الدكتور هيكل، ومنهم من يحاكي الدكتور طه، والأستاذ
الزيات، والأستاذ السازنى، ويشغف بأدب هؤلاء وغيرهم،
حتى لا يجد غضاضة أن يفخر على غيره بأنه يملك القدرة التي
تمكّنه من تقليد أسلوب أحد المذكورين أو غيره في ما يكتب
للصحف والمجلات. ولو سكت - عفا الله عنه - لدل من نفسه
الفرعُ على أصله من غير تنبيه أو لفت نظر! على أن هذا ليس
فيه لفاخر فضل، بقدر ما فيه من عيب واضح، وضلال فاضح.
ولا أنسى بجانب هذا أن أذكر أن لنا أدباء بالمعنى الصحيح،
وأن لهؤلاء الأدباء أقداماً راسخة في الأدب على ألوانه وأوضاعه،
وأهمهم قد أوتوا من حسن البيان وسحره، وقوة التعبير وفصاحة
الأسلوب وخلوصه من الشوائب قدراً يخولهم الوقوف مع كبار
أدباء العربية في العالم العربى، وإن آثارهم التي تطالعنا بها صحفنا
المحلية كل يوم، أو الكتب التي أخرجوها للناس - وهى قليلة -
من بضع سنين إلى اليوم، تشهد بهذه الحقيقة الواقعة، وتشهد
فوق ذلك بأنهم لا يقلدون غيرهم، ولا يتأثرون سواهم في أسلوب
أو تعبير أو فكرة، إلا إذا جاء ذلك عن غير قصد، لأنهم يريدون
لأدبهم حياة، ولأنهم بقاء ومكاناً ملحوظاً تحت الشمس،
ولا يتأتى لهم ذلك، إلا إذا كانوا كذلك، والفضل في ذلك راجع
إلى حسن توجيه الأدب المصرى ورسمه لنا الطريق التي يجب على
أدبائنا سلوكها كي تكون نهضتنا الأدبية نهضة بالمعنى الصحيح
لتبليغها على أمتن الدعائم، وأقوى الأسس التي يشاد عليها بناء
نهضة أدبية لأمة متيقظة طامعة إلى المجد متطلعة إلى العلاء.

وبعد، فإن الأثر الأدبى المصرى في الأدب السودانى
المعاصر أثر واضح لا يُنكر أو يُخفى على ذى بصيرة وبصر
للأسباب المذكورة آنفاً، وهى أسباب قوية حربية أن توجهنا
توجيهاً رشيداً نحو العلم والأدب إن أحسننا الاسترشاد بها والتهدى
بهديتها، ولكن لا بد للطفل من أن يقلد أباه بآدى ذى يده حتى
يكبر فيرسم لنفسه طريقاً في الحياة ليسير عليه، ولعلنا نجتاز
الآن - فى ثبات وهدى من أبصارنا وبصائرنا - هذه المرحلة
(السودان: الجزيرة أبا) بشرى السيد أبى